لمحات أدبية ولغوية في كتاب (أسطورة الأدب الرفيع)

للدكتور علي الوردي

د. إدريس جاهل إدريس

العراق – كلية التربية المفتوحة

أ.د. هاشم جعفر حسين

العراق – جامعة بابل، كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخص:

يحاول هذا البحث بيان لمحات من الفكر الأدبي واللغوي للدكتور علي الوردي عالم الاجتماع المرموق، الذي فرضت عليه موسوعيته بحكم مجال اختصاصه، علم الاجتماع، أن يتصل بالعلوم الإنسانية المختلفة، وأن يرى فيها رأيه. وقد وقع الاختيار على كتابه: (أسطورة الأدب الرفيع) ميداناً للبحث؛ لكونه يعرض لإشكاليات أدبية ولغوية، حاولنا أن ندرسها، وأن نخرجها من نصوصها المكتوبة بأسلوب الوردي الأدبي الجميل الذي يمتزج بلغة الحياة اليومية، ثم الوقوف عندها ومفاتشتها، وقبولها أو ردّها. وقد قُسِّمت المادة المجموعة إلى مبحثين، درس أولهما: إشكالية الأدب، وضمّ الآخر: إشكالية اللغة. مع الإقرار أن صفحات هذا البحث لا يمكن أن تحيط بالصرح الفكري لهذا العالم الجليل، وما قدمه من نتاج مبدع، ما زالت صورته تحاكي الأجيال على مرّ العصور.

Abstract:

This study attempts to highlight glimpses of the profile of a literary and linguistic genius, Dr. Al- Wardi, a distinguished sociologist whose encyclopedic knowledge regarding his field of specialty (sociology) enabled him to relate to various human sciences and emphasize his point of view in various fields.

His book "Ustoorat al-'Adab ar-Rafie" was chosen as case study for this research, as it deals literary and linguistic issues. We have tried to study these issues, to extract them from their written texts using the Wardi s beautiful literary style that blends with the language of everyday life. Then to deliberate on such issues and accept them or not. The relevant material has been divided into two sections: the first section deals with the issues of literature and the second section deals with issues of language.

It must be admitted that the limited nature of this research cannot completely cover the intellectual edifice of this wonderful scholar and his creative contribution while his image continues to imitate generations throughout ages.

المقدمة:

علي الوردي واحد من جهابذة علم الاجتماع وأفذاذه، يحاول هذا البحثُ سبر غور ما أنتجه في ميداني الأدب واللغة، مُستهدِياً بما أودعه في كتابه القيم (أسطورة الأدب الرفيع)، وبما أسّسه فيه من ربط محكم بين علم الاجتماع والعلوم الإنسانية الأُخَر ذات الصلة، ولاسيما علما الأدب واللغة.

لقد درس علي الوردي الأدب واللغة في ضوء مقولته: "إنّ علم الاجتماع لا يُشارِكُ المختصِّين في بحوثهم المنهجية، إنّما يأخذُ ما يصلون إليه من نتائجَ فيضعها في بوتقته الخاصة، ليصهرَها ويستخرجَ منها النظريات، التي قد تساعد الإنسان على فهم ما يحيطُ به من ظواهر اجتماعية معقدة"[1]. وقد طبّق هذه المقولة في كتابه، واستنتجَ من حقلي الأدب واللغة نظرياتٍ تساعدنا في فهم جديد لمظاهر أدبية ولغوية، ظنّ أكثرُنا أنّها قوالبُ ثابتة، وأسسٌ منيعةٌ؛ لكنّ الوردي أعملَ فيها عقلَه، وأجالَ فيها فكرَه، فأحالَ كثيراً منها إلى أسطورة.

والباحثانِ لا يتفقان معه على طول الخط، ولا يركنان إلى كلِّ ما طرحَ، غير أنّهما يُصرِّحا مُطمئنَينِ: أنّ أطروحاته -بمجملها- لا شكّ في أنّها ترتقي إلى مستوى من التلقي الفكري العالي والتواصل الثقافي بين أجيال متعاقبة، فالوردي حين ينقد ثوابت أفكار الماضين، ويَنبُشُ في مقتنياتهم الفكرية، ويعيبُ على المحدثين نظرةَ التقديس لما قيل عند الأوائل، مستشهداً بما قرأ من تجارب الأمم

المتقدمة، وما هضمه وأعاد إنتاجه من أفكارهم ومذاهبهم، إنّما يفتح بـــذلك نافـــذةً للتواصل الثقافي، بين الأمة التي نشأ بين ظهرانيها والمثقف العالمي في أصـــقاع الأرض المختلفة. ويُصرِّحا أيضاً: "أنّه لولا طغيان شهرة الوردي في ميدان علـــم الاجتماع، وذياع صيتِه في مجال تخصّصه الدقيق، لكـــان لأطروحاتِـــه الأدبيـــة واللغوية صيتاً وشأناً كبيرين؛ لكنّ الورديَّ عالمَ الاجتماع غطّى على الورديِّ الناقدِ الأدبي والمفكِّر اللغوي".

أمّا كتابُه (أسطورة الأدب الرفيع) فهو عبارة عن سِجال صحافي بينه وبـــين الدكتور عبد الرزاق محي الدين، وبعضٍ آخر ممن أورد أســـماءَهم فـــي كتابـــه. وموضوعُ الكتاب يتناول إشكاليات أدبية ولغوية تناولها بنبرة نقدية حادّة، وقد اشتدّ الجدل بين الخصمين، إلا أنّ ما يشيع في النفس راحةً مستفيضـــةً، ذلـــك الـــذوقُ الرفيعُ لكليهما، فهما بحقٍّ أستاذانِ للأدب الجليل والذوق وطرائق الحوار، قبـــل أن يكونا عالمينِ جليلينِ في اختصاصيهما.

إنّ المتأمّل لجهد الوردي في هذا الكتاب، يرى أن فكره ينتظم في الانتصـــار للمعنى بوصفه حالة واقعية ذات قيمة وفعل في حياة الناس، وفي الجانـــب الآخـــر من الكتاب نرى مقت الوردي للقواعد اللغوية والأنظمة الأدبية التـــي ذاع صـــيتها عند الدارسين قديما وحديثاً، وكأنّها مسلّماتٌ لا تقبلُ النقض. وهو –بعدُ– محاكمـــةٌ

عقليةٌ شديدةُ الوطأةِ لأغلب ما أسّسه الأدباء واللغويون من فرضياتٍ وأحكامٍ، أحكموا بها نظريتهم الأدبية وقواعدهم اللغوية.

والكتابُ على شكل مقالاتٍ، بدأت بمقالات النقد التي صوّبها الدكتور عبدالرزاق إلى أفكار الوردي في كتابه، ومجموعها خمس مقالات، ثم تبدأ مقالاتُ علي الوردي في الردِّ على ما سبق، وتفنيد ما جاء فيه، وطرح ما يريد أن يصل إلى القارئ، ومجموعُ هذه المقالات اثنتان وثلاثون مقالةً. ويمكن إجمالُ ما تناولته هذه وتلك في مبحثين، هما:

المبحث الأول: إشكالية الأدب.

المبحث الثاني: إشكالية اللغة.

المبحث الأول: إشكالية الأدب في فكر علي الوردي

يمكن للباحثينِ أن يُجملا عنوان هذا المبحث بالآتي:

أولاً؛ صلة عالم الاجتماع بالبحث الأدبي:

أوّلُ ما يطالعنا من أفكار الوردي في كتابه، أنّه يلحظ حالةً من انفصام العلاقة بين العلوم الإنسانية المتنوعة، وأنّ هذا المُدرَك قد استقرّ في أذهان الدارسين، انطلاقاً من أنّ لكلِّ اختصاصٍ أهلَه المشتغلين به. ومع اعتراف الوردي بأنّ هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، إلا أنّه يفصل بين دقائق كل علمٍ والنتائج العامة التي يمكن أن يستنتجها باحثٌ ما، فيوظفها في مجال آخر ذي صلة، في محاولة للسير الحثيث نحو تكامل الفكر الإنساني ورقي المجتمع، فالعلاقة بين مجالي الأدب وعلم الاجتماع مثلاً غير منقطعة الصلة، يقول الوردي في ذلك: "إنّ عالم الاجتماع يجب عليه أن يترك ذوي الاختصاصات الأُخَر وشأنهم في اتِّباع منهجهم الخاصِّ بهم، ولكنه يأتي أخيراً فيأخذ النتيجة التي توصلوا إليها، ويستعين بها في دراسة المجتمع البشري بوجه عام"[2].

ثانياً؛ وظيفة الأدب:

لقد تأمل الوردي كثيراً في ماهيّة الشعر العربي وآليات إنتاجه عند الشعراء وغرضهم من ذلك ووظيفة الأديب والناقد، وخلص إلى نتائج كثيرة في هذا المجال، منها إدراكه أن إشكالية الأدب العربي تتمثّل في أنّ الشعر بماهيته التي استقرّت في أذهاننا وبآليات إنتاجه، هو عامل تحجيم للتطور العقلي والثقافي والاجتماعي، لا عامل تنوير ونهضة وتقدّم، فالشعر في نظر الوردي –مع أنّه قيمة فنيّة– هو مع ذلك ظاهرة اجتماعية لها مساس مباشر بما ينشأ بين الناس من تواصل أو تنازع. والوردي بذلك لا ينفي جماليات التعبير، لكنه يسعى لتطوير تلك الجماليات، إلى الحدِّ الذي يمكن معه أن تسهم هذه في تطوير العقل وتنويره، بما لها من أثر في الواقع الاجتماعي والثقافي، وهو أثر واسع وعميق له نتائجه الملموسة الواضحة، التي ترفع من شأن إنسانية الإنسان، حين يعيش بصدق ويتمتع بالكرامة ويستمتع بها. فالشعر عند الوردي فنٌّ قبل كل شيء آخر، غير أنّ هذا الفن في المنظور الاجتماعي والثقافي حاجة نفسية، فضلاً عن كونه حاجة جمالية ومعرفية وأدبية واجتماعية[3].

لقد أكد الوردي في هذا المجال أهمية نقل النص الأدبي من دائرة النظرة التقليدية لماهيته ومنفعته وتشكيلاته الآيديولوجية السابقة، ووضعه بمواجهة فكرية مع الممارسات الذهنية واللغوية ضمن السياق الثقافي الذي يحوي هذا النص،

وغرض الوردي من ذلك أن يفتح أمام أدباء عصره وكتابه ومثقفيه المتزمتين آفاقاً جديدة لإعادة قراءة النص الشعري في سياقه الثقافي والاجتماعي بل السياسي أيضاً.

ثالثاً؛ الأدب بين الاحتفاء بالماضي والخطاب الفكري والاجتماعي الآني:

بناءً على هذه الإشكالية التي طرحها الوردي، شنّ هجوماً عنيفاً على عناية الشعراء والأدباء والنقاد العرب بالجانب الشكلي للشعر وتجميد النزعة الجمالية فيه، منصرفين عن كشف ما يمكن أن يؤديه الشعر من بناء فكري وثقافي واجتماعي، كما تفعل العلوم والمعارف الأُخَر. فالوردي يرى أنّ هذه النظرة لفعل الشعر العربي في مجتمع تلقّيه هي نظرة سلبية تحول بين الشاعر وأيّ تقدم محتمل، فالشعر بهذه الطريقة يشتغل في المنطقة غير المنتجة ثقافياً من مناطق الفعل الإنساني.

لقد رسم الوردي صورة هذه الإشكالية وما ينتج عنها في كلمات إهداء كتابه، فوجّه خطابه إلى الأدباء الذين يلبسون عباءة الماضي متغافلين عن التطور وحركة التقدم وفي ذلك يقول: "أُهدي كتابي هذا إلى أولئك الأدباء الذين يخاطبون بأدبهم العصور الذهبية الماضية، عسى أن يُحفّزهم الكتابُ على أن يهتموا قليلاً بأهل هذا

العصر الذي يعيشون فيه، ويخاطبوهم بما يفهمون، فلقد ذهب عهد الذهب، واستعاض الناس عنه بالحديد"[4].

فهؤلاء الكُتّاب –ومنهم الدكتور عبدالرزاق الذي تجري المساجلات بينه وبين الدكتور الوردي– يعيشون في عصر غير عصرهم، فهم ما زالوا يُمجِّدون عصر الذهب الذي أعمى ببريقه العيون، وكفّها عن رؤية الخلل في نتاج ما سُمِّي بالعصر الذهبي للشعر أو عصر الشعر أو عصر المعلقات، التي علقت في أذهان الناس لشرفها وقداسة محتواها، وكفّها عن رؤية ما يجب أن تراه من تطور وتقدم وانفتاح على عوالم المعرفة المنتجة في مجالات العلوم المختلفة.

فهؤلاء لا يستطيعون التأثير في أبناء عصرهم؛ لأنّهم يعيشون الماضي، منزوين في صوامعهم لا يشعرون بما يجري حولهم، ولا يلتفون إلى ما يجب عليهم فعله، فهم في مقامهم السامي وبرجهم العاجي يترفعون عن أن يتواصلوا مع طبقات المجتمع الأدنى، التي تحتاج إلى التحاور والتواصل معها بلغة واضحة معبرة عن آلامهم ومشاكلهم. فالأدب عموماً والشعر خصوصاً انبثاق من أعماق النفس، ولو أنه قام على أساس التفاضل الشكلي لنصِّ الخطاب لصار علماء البيان والبلاغة من أعاظم الأدباء والشعراء؛ لذا يدعو الوردي أولئك إلى فتح بصيرتهم، فعصرهم هذا عصر الحديد، في إشارة منه إلى التفوق التكنلوجي والتقني العلمي المنتج الذي هو عنوان الحضارة الحديثة، وعليهم أن يعيشوا همومه، وأن يستفزوا

ذواتهم لكي يُحوّلوا عنايتهم نحو أهل هذا العصر الذي يعيشون فيه؛ ليكون خطابهم في إطار المعرفة الحديثة التي يعيشها أهل زمانهم ويتنفسون هواءها[5]. فـــلا بُـــدّ لهؤلاء أن يدركوا بأنّ الحضارة الحديثة هي حضارة بصرٍ ولمـــسٍ وتجربـــةٍ، لا تعترف بالبهرجة المجردة والجماليات المزوقة، بل هي تُعنى بالأدب مـــن زاويـــة علاقته بالمجتمع، وأنّه وسيلة من وسائل النمو الثقافي والحضاري والسياسي وغير ذلك من جوانب المعرفة.

رابعاً؛ أثر الأدب والشعر في الوعي الجمعي:

بناءً على المعطى الذي سبق، كشف الوردي عن جانبٍ مهمٍّ مـــن جوانـــب دراسة الشعر العربي، أهملته الدراساتُ التقليدية كلياً، ذلك الجانب يتعلَّق فيمـــا رآه الوردي في صياغة وعي المجتمع، وتنظيم رؤيته العقلية، وبناء خطابـــه الثقـــافي، فإنْ دُرس من هذا المنظار، سيتضحُ فضاء آخر مختلف، يضع الشعر في موضـــع الاتهام والمساءلة؛ لإسهامه في استغفال الوعي الجمعي والعقل والثقافـــة؛ إذ رأى الوردي أنّ الشعر ساعد على تدعيم الحكومة السلطانية، حيث كان السلطانُ ينهبُ أموال الأمة كما يشاء وينفقها كما يشتهي؛ ولكنّه يأخذ قسطاً ممّـــا نهـــبَ فيعطيـــه للشعراء، وهؤلاء لا يترددون عند ذاكَ عن جعل السلطان أميرَ المؤمنين، وظلَّ الله في العالمين[6]، فالشاعر على هذا متّهم أيضاً بالسرقة، وبجريمة كبرى أخرى هي

استغفال الشعب، فهو يُزيّن صورة الحاكم في أعينهم ويُجمّل قبائحه، بل قد يصل به الأمر إلى توثينه وتصنيمه. ويستشهد الوردي على تلك الجريمة التي ارتكبها الشعر العربي وشعراؤه، بأنّ القرآن الكريم قد وجّهَ سهامَ النقد للشعر والشعراء الذين مجّدوا الاستغلال، ومدحوا العبودية، وتغنوا بقهر الفقراء، ورفعوا شأن الظالمين، حتى وصل الأمر إلى تحريم الشعر الذي لا يقدم نتاجاً نافعاً يسهم في بناء الإنسان الجديد الذي يتفق وقيم القرآن الحضارية. يقول الوردي في ذلك: "إنّي في الواقع لا أُحبُّ أنْ أُزهِّدَ الناسَ بالشعر أو أصرفهم عن دراسته، فالشعرُ حقلٌ مهمٌّ من حقول المعرفة، ولا غنى للباحث في المجتمع العربي وتاريخه عن دراسة الشعر، ولكنّ الذي أُريدُ من الناس أن يدرسوه دراسةَ حيادٍ وإنصافٍ لا دراسةَ حبٍّ وتعصّبٍ. إذا كان للشعر منافعُ فله مضارٌّ أيضاً، وربّما كان ضرره بالأمة العربية أكثرَ من نفعِه لها"[7].

ومن مظاهر هذا الضررِ السيء للشعر العربي، وأثره في آلية تفكير الأفراد، وامتداد هذا الأثر من عصر الجاهلية إلى الإسلام وما تلاه من عصور إلى وقتنا الحاضر، ما عقده الوردي من موازنة بين الشاعر والمؤمن المتوكِّل على الدعاء دون العمل، فالشاعرُ بوصفه طالبَ مالٍ وجاه وسلطة، يكدُّ ذهنه، ويبذل طاقته،؛ ليصلَ بفنِّه المزخرَف إلى أعلى بهرجةٍ جزلةٍ، فيرضى عنه الممدوح، ويمنحه أكبر قدر ممكن من العطاء المادي، فحال هذا الشاعر يقارب حال المؤمن، الذي

يختار السبيل نفسه، معتقداً أنّ الدعاء يكفي للحصول على الجنة ونعيمها، وأنّه كلمّا ألحَّ في الدعاء اللفظي زادت قيمة العطاء.

وهنا يتضح عمقُ المفهوم عند الوردي في نقد اتّكاء الشاعر واتّكاء المؤمن على السبيل المُيسَّرَة للوصول إلى غاية كبرى. والوردي يُقدِّم حلاً واقعياً كان يجب أن يحتذيه هذان المثالان للوصول إلى غايتيهما، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، يقول الوردي: "فالمسألة تجارية إذن، والمؤمن يُقدِّم نفسه وماله بين يدي الله على سبيل المقايضة، والله سيردّ ما قدّمه ويضيف عليه أرباحا مضاعفة. والظاهرُ أنّ المسلمين في عصورهم المتأخرة لم يفهموا كُنهَ هذه التجارة الربانيّة، فقد صاروا كالشعراء يؤثرون الاستجداء من ربِّهم، بدلاً من المتاجرة معه؛ ولهذا أخذوا يطمعون بالحصول على الجنة من طريق الدعاء والعبادة، لا من طريق العمل والإنفاق. إنّهم يحسبون ربَّهم كالسلطان الذي يتزلَّف إليه الشعراء بقصائدهم الرنّانة، ونسوا أنّ الله أجلَّ من أن يطريه مدحٌ، أو يستميله النفاقُ"[8].

وممّا تقدم يتضح أنّنا بحاجة إلى دراسة جديدة للشعر، غير الدراسة التقليدية التي هيمنت أفكارها على عقولنا، فركّزت فينا أنّ الشعر العربي يقف في مصاف المقدسات، فقد عُلِّقتْ قصائد جاهليات سبعة أو عشرة على أستار الكعبة لنفاستها،

وعلينا أن نسير على ما سار عليه الأولون، فنقارب الشعر على أنّه عنوان المجد العربي والكرامة والأصالة والتراث.

إنّ هذه العنوانات أيضاً ليست معصومة من النقد، فلطالما قرأنا عن أبطال في تاريخنا، لكن حين عرضوا على الدراسات الناقدة الموضوعية ثبت أنهّم ليسوا مثالاً يُحتذى به ولا هم أهل للتبجيل والتقدير، وعليه يجب أن نخضع الشعر العربي لمناهج الدراسة الموضوعية بوصفه نتاجَ أفرادٍ يُعاد قراءة نتاجهم من جديد.

خامساً؛ الأدب والنقد وثقافة المجتمع:

في نظر الوردي، أنّ مهمة الأديب أن يُنتج أدباً يتطلع إليه المتلقون ويعجبون به ويتعلمون منه؛ على أن يُحقِّق ذلك فائدة تعمل على تثقيف المجتمع وزيادة وعيه، فمهمة الأديب مهمة ثقافية رائدة، يقول الوردي: "الأديبُ في نظري رائد فكرة، قبل أن يكون صانع ألفاظ"[9]. فمهمة الأديب ليست مهمة جمالية محضة، بل هي مهمة ذات مساس بحياة الناس وسبل عيشهم ومستقبلهم، ولا ينافي هذا أن تكون أيضاً وسيلة لشهرة الأديب وضماناً لمنفعته الشخصية المادية ليحيى حياة كريمة، يقول الوردي: "من أبغضِ الأمورِ على الإنسان أن يكونَ جائعاً

مشهوراً"[10]، فالشهرة مع الجوع ليست أمراً عادلاً، وعلى المجتمع أن يكون منصفاً، فيُعطي كل ذي حقٍّ وتميُّزٍ بقدر تميُّزه.

أمّا مهمةُ الناقد عند الوردي، فهي مهمة كبرى، لا ينهض بها من لا يعرفون من الأدب إلا رسمَه، ولا من النقد إلا خيالاتٍ واهمةٍ، لا تستند إلى أسس علمية رصينة، فالنقد وسيلة لتنمية الأدب، بشرط أن يتحرَّر الناقد من العاطفة، إذ عليه أولاً أن يكون فنّاناً وعالماً معاً، ثم يكون صاحب إحساس مرهف؛ لذا تكون مهمة الناقد عسيرة. فثمرة النقد تقاس بمدى موضوعيته وأحكامه المنصفة، وبمثل ذلك ترتفع قيمة الأدب معه ويسمو منتجه. وللوردي آراء نقدية تفصيلية ذكرها في كتابه لا يتسع المجال لذكرها هنا، بل أردنا الإشارة إلى اطلاع هذا العالم الواسع في هذا الباب وهضمه لمنتجه وتحليله لواقعه وتشخيصه لخلله وعلاج ذلك[11].

المبحث الثاني: إشكالية اللغة في فكر علي الوردي

يمكن للباحثين أن يُجملا عنوان هذا المبحث بالآتي:

أولاً؛ صلة عالم الاجتماع بالبحث اللُّغوي:

لا يختلف اثنان في أنّ اللغة مُنتَج اجتماعي ومُعطًى حضاري وثقافي، وعليه يحقُّ لعالم الاجتماع –علي الوردي– أن يبدي رأيه في ما أنتجَ علماءُ اللغة

من نظرية لغوية ونحوية، لا من جانب التدخل في التفاصيل الدقيقة، بل أن ينطلق عالم الاجتماع من النتائج التي وصلوا إليه ليضعها في مختبر اختصاصه، فيرى أثرها في إنتاج بنى فكرية اجتماعية، يحاكمها على وفق ما يراه من أسس علمية ناهضة عنده.

ثانياً؛ إشكالية النظام اللغوي:

إنّ الإشكالية العامة التي يطرحها الوردي في هذا المجال، أنّ علماء النحو – بما أشادوه من صرح لغويٍّ متين، عجز المثقفون على اختلاف مشاربهم وأزمانهم عن أن يخترقوه– قد أضرّوا بثقافة هذه الأمة أكثر مما نفعها، فنظريته تقوم على أنّ اللغات التي تغلب على أهلها الأميّة والبداوة –كحال الأمة العربية– تكون مثقلة بأعباء النحو وقيوده، بعكس لغات الأمم الحضارية التي تخلصت من مشكلة هذه القيود[12].

إنّ إحكام قواعد اللغة وتعقيد ضوابطها هو مظهر من مظاهر البداوة عند الوردي، ومثلما يحاول أيُّ مجتمع أن ينمو ويتطور بعيداً عن روح البداوة، علينا نحن أن نفهمَ إشكالية تعقيد اللغة ونحلَّ رمزها ونفكَّ قيودها؛ لتتجهَ صوبَ الحضارة بأنفاس ثقافية جديدة وأنساق كلامية ميسرة معبرة عن واقعنا الحالي.

ثالثاً؛ الطبقية اللغوية في نظر علي الوردي:

بناء على الإشكالية –التي سبقت– راح الوردي يُدلّل –من وجهة نظر عالم الاجتماع– على أنّ نظرة المتزمّتين إلى اللغة لا تنطلق من فهم عميق لأغـــراض اللغة، فهم قد قدّسوا النظريات اللغوية التي قيلت قديماً؛ بناء على مقاييس خاطئة لا تمتُّ بصلة إلى الوقائع التاريخية التي سببت وضع علماء النحو أصول نظـــريتهم، ثم تشدّدهم على مَن خالف قواعد هذه النظرية، فالمتعارف عليه أنّ أحكام النَّحو قد شُيِّدت على السماع والقياس، وأنّ السماع إنّما اعتمد على لغة البادية ولغة قريش، والوردي يرى هنا أنّ هذا العمل من وجهة نظر عالم الاجتماع هو مظهـــر مـــن مظاهر التمايز الطبقي، فأهل مكّة إنّما عنوا بلغتهم وإرسال أولادهم إلى الباديـــة؛ لأنّهم قوم مترفون مترفعون على مَن سواهم من طبقات المجتمع الفقيرة، التي لـــم يكن بمقدورها أن تتقن فصاحة اللغة، وتضبط أحكام الإعراب، علـــى وفـــق مـــا يتفاخر به أرباب السيادة في قريش، الذين اتخذوا من اللغة وفصاحة اللسان وسيلة من وسائل السطوة والغلبة على غيرهم[13].

وممّا تقدم يتبين أنّ سيطرة فكرة الإعراب وخلودها، إنّما تُفسَّر عند الـــوردي بدافعٍ طبقي أنتجته ثقافةُ المجتمع الذي ساد آنذاك، فلما جاء الإسلام حـــارب تلـــك الفكرة، فلم يجد في فصاحة اللسان سبيلاً إلى التمايز بين بني البشر، حتى لم نعـــد نقرأ في عصر النبوة والخلافة الإسلامية قبل خلافة بني أمية أنّ الأغنياء أرســـلوا

أولادهم إلى البادية ليتعلموا الفصاحة. فلما آلَ الأمر إلى بني أمية، رجعت قريش إلى ديدنها القديم للتفاخر باللغة وإرسالهم أولادهم إلى بادية الشام هذه المرة، ليتعلموا فصاحة اللسان[14].

وفي العصر العباسي اتجه التمايز الطبقي في اللغة وجهة جديدة، إذ بدأ الخلفاء العباسيون يستدعون النحويين واللغويين إلى قصورهم؛ ليؤدبوا أولادهم، وفي هذه المرحلة التي كانت قصور الخلفاء والأمراء مقصد النحويين، كُتبت الأصول والفروع التطبيقية لعلم النحو، وعلى هذا مثّلت اللغة بقوانينها المحكَمة رغبةَ قريش والسلاطين من بعدهم وسطوتهم على الطبقة السفلى من المجتمع وعلى الخليط البشري غير المتجانس الوافد من الأمم الأخرى الذي كان يعيش في البصرة وغيرها، فغدت اللغة في زمن العباسيين أداة ارستقراطية[15].

هذا ملخص ما قاله علي الوردي في المقالة الحادية والعشرين في كتابه، وقد ردّ عليه الدكتور نجاح هادي كبة بالأدلة الآتية[16]:

1- إنّ تبدل طرائق تعلم اللغة باختلاف الأنظمة السياسية ليس مؤشراً على نوع من أنواع التمايز الطبقي، بدليل أنّ اللغة العربية قد حافظت على أمنها وفصاحتها إلى يومنا هذا، مع اختلاف سطوة الأنظمة السياسية واختلاف طرق تعلمها.

2- إنّ العصر الإسلامي وعصر الخلافة الراشدة لم يقلل من أهمية اللغة، بل الملاحظ فيه أنّهم عنوا بسلامة اللغة أيّما عناية، وحافظوا على سلامة مبناها، ومعناها؛ لأنّ ذلك مرتبط بسلامة الدين.

3- إنّ القرآن الكريم وحَّد هذه اللغة وحافظ عليها بضوابطها المتعدِّدة، حتى وصلت إلينا سليمة معافاة.

4- إنّ اللغة العربية لو كانت طبقية، لما استوعبت الفكر الحضاري للعرب والمسلمين على اختلاف أوطانهم ومشاربهم وطبقاتهم الاجتماعية.

5- إنّ دراسة العلاقة بين اللغة والتمايز الطبقي عند العرب موضوع سياسي اجتماعي، لا يمتُّ بصلة إلى دراسة بنية اللغة العربية وتطورها عبر العصور.

والظاهر أنّ الدكتور الوردي قد بالغ في نظرية التمايز الطبقي وأثرها في نشوء قواعد العربية الفصحى عبر العصور، فالعربية الفصحى إنّما نشأت لدواعٍ حضارية محضة ووقائع أدبية مكنت لقريش سيادتها اللغوية على جزيرة العرب، ولا علاقة لذلك بما أراد الوردي أن يُبرهن عليه.

رابعاً؛ الإعجاز القرآني في نظر علي الوردي:

الإشكالية اللغوية الأخرى التي يشير إليها الوردي، هي أنّ إعجاز القرآن الكريم ليس له علاقة بالجانب اللغوي بأدواته المعروفة: الألفاظ والمعاني

والأسلوب، وإنّما إعجازه يكمن في كونه ثورة اجتماعية كبرى، فالقرآن الكـــريم – في رأي الوردي – غير معنيّ بتعليم الناس فن الكـــلام، وأنّ عنايتـــه لا تخـــتصُّ بالجوانب الفنية واللفظية أداتين لهما شأن في إعجازه[17].

وهنا لا بُدّ من وقفة مع رأي الدكتور الوردي؛ ليتضح أنْ لا مـــانع مـــن أن يكون إعجاز القرآن الكريم قد تمثل بكونه ثورة اجتماعية كبرى فضلاً عن كونـــه ثورة في المجال الفني والأدبي واللغوي، وأنّه ثورة أيضاً في مجـــالات معرفيـــة وإنسانية وعلمية متنوعة.

خامساً؛ اللغة العربية لغة عاطفية عند علي الوردي:

إن اللغة العربية –في نظر الوردي– لغة قوم يُعنَون بالشعر، فهي بذلك لغـــة ألفاظ رنّانة أكثر من كونها لغة معانٍ دقيقة، وليس أدلّ على ذلك من أنّ النظريـــة النحوية التي أوجبت على الناطقين بالعربية أن يلتزموا بها إنّما وُضعت قواعـــدها على الشواهد الشعرية التي جمعها الرواة من البدو، وهي في أغلبها شواهد كاذبـــة من صنع النحويين، والأنكى من ذلك أنّ النحويين أجازوا وضـــع القواعـــد علـــى الشعر الذي يخالف قواعدهم المفروضة، وقد سوّغوا ذلك بما سمّوه بـــــالضرورة الشعرية، يقول الوردي: "إن النحاة أفسدوا النحو؛ باعتمادهم على الشواهد الشعرية

في تحرير قواعدهم، فالشعر لا يصلحُ أن يكون أساساً للنحو على أيِّ حـــالٍ، إنّـــه مقيّد بقيود الوزن والقافية، وكثيرا ما تأتي الكلمات والجمل فيه على غيـــر نســـقها الطبيعي المألوف في لغة الأفكار المنظمة"[18].

ثم يعقب أيضاً بأنّ النحويين أخطؤوا في مقولتهم: "يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره؛ لأنها تمنح الشاعر امتيازاً على حساب القواعد المقررة، ممّا يُدلّل على عدم ثبات قواعدهم وهشاشتها[19].

ثم إنّهم صاغوا القواعد على أساس القياس المنطقي الذي وضـــعه أرســـطو وغيره، فأصبحت اللغة بثقل القياس عبئاً ثقيلاً يقف حائلاً بين النـــاطقين ولغـــتهم، وبسبب القياس الذي يهمل الشواهد الكاذبة ظهرت مدرسة الكوفة التـــي ناصـــبت مدرسة البصرة العداء، ومن هنا شاع تقعرُ النحويين وترهلُ اللغة، فنتج عن ذلـــك تعقيد المسائل النحوية وعزوف كثير من الدارسين عن تعلم اللغة العربية، يقـــول الوردي: "يمكن تشبيه النحو العربي بالعقدة النفسية، إنّه وسواس ما بعده وسواس، فالخطيبُ لا يستطيع أن ينطلق فـــي كلامـــه، مخافـــةَ أن يُخطِـــئ فـــي النحـــو، والمستمعون لا يكترثون بما يأتي به من المعاني، إنما هم يركزون عنـــايتهم فـــي تتبُّع حركات الإعراب من كلامه، وهم لا بُدَّ أن يعثروا فيها على لحن، فيهـــزون رؤوسهم آسفين، كأنّ الكلام لا يحتوي إلا على الفتح والضم والكسر والسكون"[20].

ولا يُسلِّم الباحثان بما قاله الوردي على إطلاقه، فوسمُ العربيـــة بأنهـــا لغـــة عاطفية كونها تُعنى بالشعر، أمرٌ لا يمكن الركون إليه؛ لأن هذه ســـمة أيـــة لغـــة أخرى، فاللغة أداة للتعبير عن الواقع اللغوي لمتكلِّميها، وصورة حيّـــة لإنتـــاجهم اللغوي، بما فيه من جوانب عقلية وفلسفية وإنسانية عاطفية.

وبما أنّ الشعر واحد من أبرز اهتمامات العرب، حتى وصفوا بـــأنّهم أمـــة شاعرة، لم يكن غريباً أن يعتمد النحويون على الشعر لتوثيـــق مـــادتهم اللغويـــة وإقرار قواعدهم النحوية، ولا يمكن القبول بقول الوردي: إنّ هذا الشـــعر كـــاذبٌ برُمَّتِه، ولربّما هو تسامح منه، فقد أتعب النحويون أنفسهم في نقد هـــذه الشـــواهد، واعتمدوا ما صحّت نسبته عند وضع القواعد، وعزلوا ما لم تثبت صحّته عن واقع الاستشهاد اللغوي والنحوي.

سادساً؛ اللغة العربية عند الوردي لغة ألفاظ لا معانٍ:

من مظاهر ترهل اللغة العربية وميوعتها وتقعرها عند الوردي، أنّهـــا لغـــة تكثر فيها أنواع الجموع والمصادر والمترادفات والمشترك اللفظي وغير ذلك؛ ممّا يجعلها تباهي باللفظ على حساب المعنى، فهي غير دقيقة من هذا الجانب، فـــالعين مثلا لها معانٍ كثيرة في اللغة، مثل: عين الماء، والعين الباصـــرة، والجاســـوس،

وصاحب الجاه وغير ذلك، والسيف ذكرت له كتب العربية ألف اسم دالة على مسمّى واحد[21].

ويبدو أنّ الدكتور الوردي نسي أنّ ذلك شائع أيضاً في اللغات الأُخر، مع أنّ أحداً لم يصفها بالترهل والتقعّر والميوعة، ثم إنّه قد نسي أو تغافل عن أنّ كثرة المترادفات والمشترك اللفظي والجموع والمصادر هي وسيلة من وسائل نمو اللغة، وأنّها تمنح المُتكلِّم مرونة في صياغة الجملة العربية بحسب ما يقتضيه الكلام، فاللفظ ينزل منزلاً يقتضيه معنى الكلام، وهو أمر تقتضيه نواميس اللغات الأُخر أيضاً.

سابعاً؛ نظرية التواصل اللغوي عند الوردي:

استحقت عناية الوردي بنظرية التواصل اللغوي الثناء والتقدير، فهذا العالم يُعدُّ من أوائل مفكرينا المعنيين بالنتاج اللغوي تماشياً ونظرية التواصل الاجتماعي والثقافي مع متكلمي اللغة بمستوياتهم كافة، فبدل أن يبقى مجال اللغة محصوراً بالشعر والخطب الدينية، عليه أن يشمل لغة الخطاب اليومي، وإلا حدثت قطيعة لغوية بين الأديب أو اللغوي وبين مخاطبيه؛ ممّا يقودهم إلى عدم التواصل معه ومع مُنتَجه[22].

ومن هنا جاءت دعوة الوردي إلى تيسير الكتابة؛ ممّا يجعلها شكلاً من أشكال التواصل الثقافي في الوجود اليومي، لا متحفاً للأفكار القديمة المخزونة في موروثنا الثقافي فحسب، فالكتابة مرتبطة إلى حدٍّ كبير بأنماط التفكير، ولا يمكن أن تحدث ثورة في التفكير ما لم يسبق ذلك ثورة في أسلوب الكتابة وأشكالها التقليدية، يقول الوردي: "كنتُ قد دعوتُ في مقالاتي السابقة إلى تيسير لغة الكتابة، وإلى تجريدها من الزخرفة والحذلقة، اللتين اتَّصف بهما الأدبُ العربيُّ القديم، فنحن الآن نكتبُ للجمهور لا للطبقة الخاصة، والحياةُ الجديدة تقتضي أن نغيّر من أسلوب لغتنا، كما غيّرنا من أسلوب مساكننا وملابسنا وغيرها"[23].

إنّ الوردي في نصِّه هذا يشخص لنا بصراحة –كعادته– المشهد اللغوي والثقافي الذي عاشت فيه اللغة ومتكلميها، فنصُّه وثيقة تاريخية تشهد لنا بأنّ تلك المرحلة شهدت قطيعة لغوية بين أصحاب نظرية الفن للفن والمحرومين من الطبقات غير المثقفة، الذين انقطع اتصالهم اللغوي بغيرهم من المترفين وهمشوا وشعروا بظلمهم السياسي والثقافي، فالوردي يُشخّص، وفقاً لنظرية الازدواج عنده، اللغة العربية في ثقافتنا بأنْ هيمن عليها ما يعرف بازدواجية اللغة، إذ إنّ اللغة محكومة بالمعيارية اللغوية، التي تسبق وجود متكلم اللغة في المرحلة التاريخية اللاحقة؛ أي: "إنّها أشبه بالنظرية المثالية عند أفلاطون. وقد شكّلت المعيارية اللغوية رؤية كلاسيكية للثقافة وللإنسان، فبقيت بعيدة عن واقع الاستعمال اللغوي

المتجدد في الحياة اليومية، فحدثت القطيعة بين اللغة وعمليات التواصل الثقـــافي. أمّا البديلُ الذي يقدِّمه الوردي لهذه الإشكالية، فيجب أن يبدأ عمله من الإيمان بـــأنّ اللغة لا تُولد في بطون الكتب، ولا في قصائد الشعراء، ولا في تقنيـــات البلاغـــة والبيان؛ لذا دعا الوردي إلى تغيير سياسات تدريس اللغة وكتابتها ونشـــرها؛ لأنّ ذلك يُجسِّر الفجوة بين المثقفين المتعالين وطبقة المحرومين المعدمين، الذين تدعو الحاجة إلى التحاور والتواصل معهم بلغة واضحة ميسرة معبـــرة عـــن آلامهـــم ومشاكلهم، وعند ذاك تتحول اللغة إلى ممارسة ثقافية وممارسة لغوية، تولد مادتها من جديد في الأزقة والأماكن السفلية المنسية في قاع المجتمع، مثلما تُؤخـــذ مـــن لسان علية القوم وأرباب اللسان في الأمة؛ لتتشكل بذلك لغة ألسنة العامة وأنظمـــة الكلام اليومي التي تعلمنا التحدث بأبجديات اللغة المنطوقة لا المكتوبة[24].

نتائج البحث:

- يُعدُّ هذا البحث محاولة لتقليب أوراق كتاب مهم للمبدع الراحل علي الوردي عالم الاجتماع المرموق، الذي فرضت عليه موسوعيته بحكم مجال اختصاصه في علم الاجتماع أن يتصل بالعلوم الإنسانية المختلفة، وأن يرى فيها رأيه.
- كتاب (أسطورة الأدب الرفيع) يتناول إشكاليات أدبية ولغوية، حاولنا أن ندرسها ونخرجها من نصوصها المكتوبة بأسلوب علي الوردي الأدبي الجميل الذي يمتزج بلغة الحياة اليومية، ثم نعرض لها بالقبول أو الردِّ.
- قُسِّمت المادة المجموعة إلى مبحثين، تناول أحدهما: إشكالية الأدب، وتناول الآخر: إشكالية اللغة، مع التنبيه هنا على أنّ مثل هذه الأوراق لا يمكن أن تحيط بالصرح الفكري لهذا العالم الجليل وما قدمه من نتاجٍ مبدعٍ، ما زالت صورته تحاكي الأجيال على مرِّ العصور.

الهوامش:

(1) الوردي، علي، أسطورة الأدب الرفيع، ط2، لندن، توزيع دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1415هـ- 1994م، ص50 ص51.

(2) السابق، ص50.

(3) السابق، ص80 ص81.

(4) السابق، ص5.

(5) السابق، الصفحات: ص246 ص248.

(6) السابق، ص81.

(7) السابق، ص280.

(8) السابق، ص11.

(9) السابق، ص250.

(10) السابق، ص253.

(11) السابق، الصفحات: ص256 ص262.

(12) السابق، ص161.

(13) السابق، ص195 ص196.

(14) السابق، ص198.

(15) السابق، ص202.

(16) كبة، نجاح هادي، 2013م، هل اللغة العربية لغة طبقية تاريخياً كما رأى د. علي الوردي(on-line)، صحيفة التآخي، دار التآخي للطباعة والنشر، بغـــداد، والرابط في أدناه:

http://www.altaakhipress.com/viewart.php?art=32257

(17) أسطورة الأدب الرفيع، الصفحات: ص135 ص139.

(18) السابق، ص180.

(19) السابق، ص173 ص176.

(20) السابق، ص129.

(21) السابق، ص145.

(22) السابق، الصفحات: ص60 ص62.

(23) السابق، ص265.

(24) السابق، ص255.

المصادر والمراجع:

أولاً؛ الكتب:

- الوردي، علي، أسطورة الأدب الرفيع، ط2، لندن، توزيع دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1415هـ-1994م.

ثانياً؛ المواقع الإلكترونية:

- كبة، نجاح هادي، 2013م، هل اللغة العربية لغة طبقية تاريخياً كما رأى د. علي الوردي(on-line)، صحيفة التآخي، دار التآخي للطباعة والنشر، بغداد، والرابط في أدناه:

http://www.altaakhipress.com/viewart.php?art=32257